﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ربـــطُ شـــروط مـوالاة المؤمنين بمفهوم مـوالاة الكافرين الّذين هم بالكفر ملّةٌ واحدةٌ

لَمّا بيَّنَ اللّهُ ﷻ في الآية السّابقة شَرطَ موالاةِ المُسلمينَ لأهلِ الإسلامِ بقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾؛ بَيَّنَ هنا موالاةَ الكافِرينَ بعضِهم بعضًا، وأنَّهُ لا شَرطَ فيها إلّا مُطلَقُ الكُفرِ، فهو وإن اختَلَفَت أنواعُهُ، وتعدَّدَت ضُروبُهُ، يَجمَعُهُ عداوَةُ اللّهِ سُبحانَهُ وولايَةُ الشَّيطانِ وحِزبِهِ، فقالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: أصل الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهب النَّارَ لتظهرَ جودتُه من رداءته، ولذلك تذكرُ بعضُ كتبِ اللّغةِ أنّ الفاءَ والتّاءَ والنّونَ تدورُ تصريفاتُها على إذابةِ مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها؛ بإدخالها نارًا حارَّةً، ومِنه إذابةُ الذَّهب والفضَّة[2].

والفتنةُ تُستعمَلُ في إدخال الإنسانِ النّارَ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾، وتُطلَقُ على العذاب، قال تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾؛ أي: عذابَكم، وتارةً يُسمُّون ما يحصلُ عنه العذاب، فيُستعمَلُ فيه نحو قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾، وتارةً في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾. والفتنةُ منَ الأفعال الّتي تكون منَ اللّه تعالى ومنَ العبد؛ كالبليّةِ والمُصيبةِ والقتلِ والعذابِ وغيرِ ذلك منَ الأفعال الكريهةِ، ومتى كان من اللّه يكون على وجه الحكمةِ، ومتى كان من الإنسان بغير أمرِ اللّهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فتن).

يكون بضدّ ذلك، ولهذا يذمُّ اللّهُ الإنسانَ بأنواع الفتنةِ في كلّ مكانٍ نحو: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

والفِتنَةُ في الأرضِ: قوّة الكُفر[2]، وَوجهُ التَّحويلِ في هذا المَعنَى ظاهِرٌ؛ وذلِكَ أنَّ الأصلَ في الأرضِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ جعلَها على الإيمانِ والتَّوحيدِ، فَفُشوُّ الكُفرِ فيها وقوَّتُهُ تحويلٌ للأرضِ عمّا ينبغي أن تَكونَ عليهِ.

2) ﴿وَفَسَادٌ﴾: الفَسادُ: خروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدالِ قليلًا كان أو كثيرًا، وضدُّه الصَّلاح؛ وهو البُطلانُ والاضمِحلال، ويأتي بمَعنَى التَّغَيُّرِ[3]، ويُستعمَلُ ذلك في النَّفسِ والبدنِ والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامة[4].

والمعنى الجامِعُ له أنَّهُ خُروجُ الشَّيءِ عَنِ الاعتِدالِ والاستِقامة[5]، فيكون في الأرضِ بِتَهييجِ الحُروبِ والفِتَنِ، وانتفاءِ الاعتِدالِ والاستقامَةِ عَن أحوالِ النَّاسِ وزَرعِهِم وسائِرِ منافِعِهم، وتولّي المؤمِنِ الكافِرَ دونَ المؤمِنِ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآية أنّ الّذينَ كفَروا باللّهِ تعالَى ورسولِهِ ﷺ بَعضُهُم أعوانُ بَعضٍ، وليس لكم أن توادّوهم أو تتّخذوهم أصدقاءَ مهما كانوا منَ القرابةِ والصّلةِ، وإن لَم تَفعَلوا - أيُّها المؤمِنونَ - ما أُمِرتُم بِهِ تكُنْ في الأَرضِ فِتنَةٌ للمُؤمِنينَ عَن دينِ اللّهِ سُبحانَهُ، وفسادٌ عريضٌ بالصَّدِّ عَن سَبيلِ اللّهِ تعالى وتَقويَةِ دعائِمِ الكُفرِ[7].

مـوالاةُ الـكـافـرِ فـتـنـةٌ كـبـيرةٌ، والـولاء العقديُّ لُحمة ورِباط

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) السَّمعانيّ، تفسير القرآن: 2/282.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (فسد).
(4) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(5) الرّاغب، المفردات: (فسد).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/84 - 87، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 186.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في الجملة المبدوءة بالموصول:

مِـن طَـرائِـقِ القُـرآنِ الكَريمِ ذِكـرُ الأَشـيـاءِ المُتناظِرَةِ المُتقابِلَةِ

الواوُ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من قَولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ عاطِفَةٌ، وصَلَت هذهِ الجُملَةَ بما قَبلَها؛ لِما بينَهُما مِنَ التَّوسُّطِ بينَ الكمالَين؛ فإنَّ كُلًّا من هذهِ الجملَةِ وما عُطِفَت عليهِ من قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ خبريَّةٌ، وبينَهُما جامعٌ وهو التَّضادُّ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى لَمّا ذَكَرَ وِلايةَ أهلِ الإيمانِ ذَكَرَ ولايةَ أهلِ الكُفرِ، وبين الجُملَتَينِ تناسبٌ من جِهَةِ الاتِّفاقِ في لفظِ المُسنَدِ إليه (الّذينَ)، وإنِ اختلفَ متعلَّقُهما، واتَّحدا في اسميَّةِ الجُملَةِ، ويَجوزُ أن تَكونَ الواوُ للتَّقسيمِ؛ وذلك لأنَّ الآيَةَ في بيانِ حُكمِ القِسمِ المقابِلِ لقولِهِ تعالى قَبلُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾[1]. ولا تعارُضَ بينَ دِلالةِ الواوِ على التَّقسيمِ وبينَ كَونِها عاطِفَةً.

نُكتَةُ تَعريفِ المُسنَدِ إلَيهِ بالمَوصولِيَّةِ:

أَهـلُ البـاطِـلِ يُـوالي بَعضُهُم بَـعـضًـا عـلى باطِلِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ (الَّذينَ) بالموصوليَّةِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الحُكمِ المذكورِ في الخَبَرِ، وأنَّ تَوَلِّي بعضِهِم بعضًا إنَّما كانَ بسببِ اجتماعِهِم على الكُفرِ.

عِلَّةُ إيرادِ الاسمِ المَوصولِ جَمعًا:

كَـثرَةُ أَهلِ الكُفرِ مَـعَ اخـتِـلافِ مَشارِبِ كُفرِهِم

إيرادُ الاسمِ الموصولِ جَمعًا في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ فيهِ إشعارٌ بكَثرَةِ أهلِ الكُفرِ؛ وذلكَ لأنَّ الكُفرَ أنواعٌ متعدِّدَةٌ، كُلُّ نوعٍ من أنواعِهِ يندرِجُ تحتَه أفرادٌ كثيرونَ.

سِرُّ مَجيءِ الصِّلَةِ فِعلًا ماضيًا:

تَـحَـقُّـقُ وَصـفِ الـكُـفرِ مُـوجِـبٌ الموالاةَ عليه

جيءَ بصِلةِ المَوصولِ فعلًا ماضيًا ﴿كَفَرُواْ﴾ من قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾؛ للدِّلالَةِ على تحقُّقِ وَصفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

الكُفرِ فيهِم، وأنّهم همُ الّذين حرصوا على رسوخ الكفرِ في قلوبِهم، حتّى فقدوا الاستعدادَ للإيمان، وفيه إشارةٌ إلى التّنفير من وصف الكُفرِ وتقبيحه، حتّى ولو كان في كُفر النّعمةِ.

نُكتَةُ حَذفِ متعلّق الكُفرِ:

إغراقُ أَهلِ الكُفرِ في البـاطِـلِ، بِتَكذيبِهِم جَميعَ ما أَوجَـبَ اللهُ تعالى الإيمانَ بِهِ

حُذِفَ متعلّقُ الفعلِ (كَفَروا) مِن قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ وهو المَكفورُ بهِ؛ لإرادَةِ العُموم، وذلك لأنَّ حَذفَ المَعمولِ مُؤذِنٌ بذلك، والمَعنَى: كفَروا بِجَميعِ ما يَجِبُ أن يُؤمِنوا بِهِ شَرعًا.

وأيضًا للدّلالة على أنّ كُفرَهم لا يقتصرُ على الكفر باللّه ورسله إلى آخر ما يجبُ الإيمانُ به، بل يتعدّى كفرُهم إلى جحودِ كلِّ نعمةٍ وخيرٍ.

دلالَةُ التّعبيرِ بالجملة الخَبَريّةِ:

تَحريمُ موالاةِ المُسلِمينَ للكافِرينَ

قولُ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ خَبَرٌ، وهوَ مُستَعمَلٌ في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو النَّهيُ عن موالاةِ المسلمينَ لأهلِ الكُفرِ عمومًا، سواءٌ أكانت هذه الموالاة في الميراث؛ فلا يرثُ المسلمُ الكافرَ، والنَّصُّ النَّبويُّ في هذا صريحٌ: «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ ولا الكافرُ المسلمَ»[1]، أم بمعنى المؤازرةِ والمناصرةِ، وعلى ذلك فالآيةُ تدلُّ بمفهومها على نفي الوراثة بين الكفّار والمؤمنين، وأيضًا نفي المؤازرةِ، وتدلُّ على إيجابِ المباعدةِ والمصارمةِ بين المسلمين والكافرين، وإن كانوا أقاربَ[2].

والقَرينَةُ على هذهِ الدِّلالَةِ أنَّ الإخبارَ المحضَ عَن ولايةِ الكُفّار بعضِهم بعضًا ليسَت ممّا يَهُمُّ أهلَ الإسلامِ لولا إرادَةُ النَّهيِ عَن موالاةِ المسلمينَ إيَّاهم[3].

(1) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح، الحديث رقم: (6764)، ومسلم في صحيحه، الحديث رقم: (1614).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/345، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/87.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾:

الـكـفّـارُ كلُّـهـم يـدٌ واحـدةٌ على المـسـلـم، وهـم يتكاتفون ضدَّه

دلَّ هذا التّعبيرُ على أنّ الكفّارَ يُوالي بعضُهم بعضًا لاجتماعهم على الكفر، وإنِ اختلفَت مللُهم، كما حصلَ بين اليهود ومشركي مكّةَ؛ فكلُّ فريقٍ منهم يُوالي الآخرَ من أجل القضاءِ على المسلمين، يؤكّدُ ذلك التّعبيرُ بالبعضيّة الّذي يشيرُ إلى أنّهم، وإنِ اختلفَت مذاهبُهم ومِللُهم، بمنزلة الجزءِ منَ الكلِّ، والعُضو منَ الجسد في حربهم على الإسلام والمسلمين.

سرُّ التّعبيرِ بقوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

صيغةُ (فعل) أعمُّ من (عمل)

آثرَ التّعبيرَ بالفعل دون العمل مثلًا؛ لأنّ الفعلَ أعمُّ منَ العمل، والمرادُ هنا العموم في ولاية المؤمنين بنُصرتهم ومؤازرتهم وقطع ولاية الكافرين بكلِّ أصنافها، ولو دعَتِ الأسبابُ إلى ذلك من قَرابةٍ ونحوها.

دلالةُ واو الجماعة في قوله: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾:

الأمـةُ جـمـعـاءُ مطالبةٌ بموالاة المـؤمـن دون الكافر

دلَّ التّعبيرُ بواو الجماعة على أنّ الأمةَ في كلِّ أفرادها مجتمعةً مطالبةٌ بقطع ولاية الكافرين وموالاة المؤمنين لبعضهم البعض بالمؤازرة والمناصرة؛ للحفاظ على بَيْضتها ولُحمتها، ومَن وقفَ على تاريخِ الدُّولِ الإسلاميَّةِ الّتي سقطَت وبادَت يجدُ أنَّ السّببَ الأعظمَ في سقوطِها وإبادتِها مخالفتها أمرَ اللّه في ترك ولايةِ الكافرين، واستُبدلَت ولايةُ المؤمنين بعضَهم بعضًا بولاية الكافرين.

تَعَدُّدُ مَرجِعِ الضَّميرِ في سياق الآية:

تـعـدُّدُ المعاني القُرآنيَّةِ بتَعَدُّدِ أوجُـهِ مَـرجِـعِ الضَّميرِ

الضَّميرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ﴾ يجوزُ أن يعودَ على الميثاقِ، والمرادُ: حِفظُهُ، أو على النَّصرِ، أو على التَّوارُثِ، وجائزٌ أن يعودَ على مجموعِ ذلك كُلِّه[1]، فيكونُ الضَّميرُ بمنزلَةِ اسمِ الإشارَةِ الّذي يُشارُ بهِ إلى كلِّ ما تقدَّمَ[2]. والأظهَرُ أنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى قولِهِ سُبحانَهُ:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/359.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/158.

﴿بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾، على معنى: إنْ لَم تفعَلوا مِثلَهُ مِن موالاةِ المسلِمينَ، ومعاداةِ الكافِرين[1]، ولذا قال الزَّمخشريُّ في تفسير هذه الآية: "إلّا تَفعَلوا ما أَمَرتُكُم بهِ مِن تَواصُلِ المُسلِمين، وتَوَلّي بَعضِهِم بَعضًا..."[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿تَكُن﴾:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يدلُّ التّعبيرُ بقوله: ﴿تَكُن﴾ على أنّه من سُنَنِ اللّه الكونيّة، أنّ تركَ ما أمرَ اللّهُ به عمومًا، وفي النّهي عن موالاة الكافرين خصوصًا، يؤدي إلى العواقبِ الوخيمةِ والأضرارِ الجسيمةِ على مستوى الفرد والأمَّة، ويؤكِّدُ الواقع ما أصاب الأمةَ من خَسارةٍ فادحةٍ لمّا اتّخذَتِ الكفّارَ أولياءَ، ولم يكن ذلك أمرًا عفويًّا، بل هو نتيجةٌ لمخالفة سنن اللّه.

الفتنةُ كائنةٌ بمخالفة سُنَن الله

سرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالفتنة:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ آثرَ التَّعبيرَ بالفتنة؛ لأنّها تُطلَقُ على معانٍ عديدة منَ الابتلاءِ والاختبارِ والعذابِ والشِّدَّةِ، وكلُّ ذلك قد حدثَ للمسلمين في مبدأ الدّعوة، فحاول الكفّارُ أن يفتنوهم عن دين اللّه، فأمرَ الرّسولُ ﷺ بعضَ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة، وبعدَ بيعةِ العقبة اشتدَّ إيذاءُ مشركي مكّةَ للمؤمنين، فأصابَهم جهدٌ شديدٌ، وما المقاطعةُ الاقتصاديّةُ الّتي فعلَتها قريشٌ إلّا دليلٌ على شدّة هذه الفتنة وعِظمها.

الفتنةُ وقعُها شديدٌ، حذّرَ القرآنُ منها أشدَّ التحذيرِ

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

دلَّ تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٞ﴾ في قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾على الخطرِ العظيمِ[3] النّاتجِ عن هذه الفتنة في واقعِ الأمَّة،

ضعفُ أهلِ الإيمانِ وقوَّةُ أهلِ الكُفرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/345.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/240.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/346، وأبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/233.

والمعنى: إلّا تفعَلوه تَحصُلُ فِتنَةٌ عظيمَةٌ في الأرضِ؛ بضعفِ أهلِ الإيمانِ وقوَّةِ أهل الكُفرِ.

سِرُّ عدمِ وصفِ الفتنةِ بالكِبَر:

قليلٌ منَ الفتنة كـافٍ للتّحذير منه

لم يصفِ القرآنُ الكريمُ الفتنةَ بالكِبَر بأن يقولَ: (فتنةٌ كبيرةٌ)؛ لأنّ القليلَ منَ الفتنة خطرُه عظيمٌ؛ فما احتاجَت أن تُوصَفَ بالكبيرة؛ فكيف لو وصفَها بالكبيرة؛ بخلاف الفسادِ فمنه الصّغيرُ والكبيرُ، لذلك وصفه فيما بعدُ بالكبير؛ ليُفرِّقَ بين فسادٍ يتعلَّقُ بالأمّة ودينِها وفسادٍ يتعلَّقُ بأمرٍ دنيويٍّ أو شخصيٍّ.

دلالَةُ اللّامِ في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

مَن أحدَثَ فِتنَةً في بُـقـعَـةٍ مِـنَ الأَرضِ؛ كـانَت بِمَنزِلَة الفِتنَةِ في الأَرضِ كُلِّها

اللّامُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من قولِ اللهِ ﷻ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لامُ الجِنسِ المفيدَةُ عمومَ البِقاعِ المندرجةِ تَحتَ لَفظِها، وهذه الدِّلالَةُ تقتضي شناعَةَ مَن ألحَقَ الفِتنَةَ في أيِّ بقعةٍ من بقاعِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن فَعَلَ ذلك؛ فقد ألحقَ فسادًا في تِلكَ البُقعَةِ بالفِعلِ، وفي جَميعِ البِقاعِ الأُخرَى بالقوَّةِ.

وممّا يُذكَرُ في دلالة (أل) في الأرض أنّ ما يحدثُ في أيّ بقعةٍ من بقاعها شرقًا أو غربًا صار معلومًا لكلِّ أهلِ الأرضِ في الغالب؛ فهي وإن كانت قديمًا متباعدةً فهي الآن متقاربةٌ كالقرية الواحدة.

سِرُّ التّنصيصِ على مَحلِّ الفِتنَةِ:

الإخـلالُ بالمكانِ الّذي يَعيشُ فيهِ المَرءُ مِن أَعظَمِ القَبائِحِ

التّنصيصُ على محلِّ الفِتنَةِ - وهيَ الأرضُ - في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه المبالغَةُ في حَملِهِم على الامتِثالِ لِما أُمِروا بِهِ؛ تجنُّبًا لظهورِ الفِتنَةِ في الأرضِ، وهي المحلُّ الّذي خُلِقوا مِنه، وعلى ظَهرِهِ يعيشونَ، وإليهِ يَرجِعونَ، فقَمِنٌ ألّا تَقَعَ فيه فِتنَةٌ.

سرُّ الجمعِ بين الفتنةِ والفسادِ:

قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾، جمعَ

القرآنُ الكريمُ بينهما للمبالغة في التّحذير في عدمِ فعلِ ما شرعه اللّهُ للمؤمنين من ولايةِ بعضهم لبعض وتناصُرِهم وتعاونِهم تجاه ولاية الكفّار؛ وذلك لأنّ الأثرَ المُترتِّبَ على ذلك أثرٌ خاصٌّ وأثرٌ عامٌّ ؛ فالفتنةُ أثرٌ يختصُّ باضطهادِ المسلمين وصدِّهم عن دينهم، وهذا واضحٌ في هذه السّورة، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾، وتعني الفتنةُ أيضًا: التباسَ الأمرِ وعدمَ وضوحِ الحقيقةِ عند بعض المسلمين؛ أمّا الفسادُ؛ فأثرُه عامٌّ على كيان الأمّة، ومظهرُه استضعافُ دولةِ الإسلامِ وفرضُ الشُّروطِ عليهم والتَّحكّمُ في شعائرهم.

الفتنةُ خاصّةٌ، والفسادُ عامٌّ، وكلاهما واقعٌ بمخالفة أمر الله

سرُّ التّعبيرِ بالفساد:

في قوله: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، آثرَ التّعبيرَ بالفساد دون غيره؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ تندرجُ تحتَه كلُّ أنواعِ الخروجِ عن حدِّ الاعتدالِ كُفْرًا وشِرْكًا، ويشملُ ما يقعُ في النّفس والبدن والأشياء، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ولايةَ المؤمنين للمؤمنين صلاحٌ، وأنّ ولايةَ الكافرين للمؤمنين فسادٌ.

كلُّ ضررٍ بالمؤمن في دينه ودنياه هو فساد

دلالَةُ تَنكيرِ لفظ (فَسادٌ):

نُكِّرَ لَفظُ (فَساد) من قَولِ اللّهِ ﷻ: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾؛ لإرادَةِ التَّعظيم؛ أي: تَحدثُ في الأَرضِ فتنَةٌ عظيمَةٌ وفسادٌ عظيمٌ وكبيرٌ.

تَركُ موالاةِ أَهلِ الإسلامِ بَعضِهم بَعضًا مِنَ الفَسادِ العَظيمِ في الأَرضِ

ويجوزُ أَن يكونَ التَّنكيرُ لإرادَةِ النَّوع؛ أي: يَحصُلُ نوعٌ مِنَ الفسادِ مُباينٌ لِما عُهِدَ مِنه، وهذه الدِّلالَةُ تؤولُ إلى ما قَبلَها؛ لأنَّ هذا الفسادَ إنَّما بايَنَ سائرَ أنواعِ الفسادِ؛ لعِظَمِهِ وشدَّةِ شناعَتِه.

دلالَةُ وَصفِ الفَسادِ بالكِبَرِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾، وُصفَ الفَسادُ بِالكِبَرِ مبالغَةً في تعظيمِه وإظهارِ خُطورَتِه، فاجتَمَع فيه نوعان: فسادٌ مادّيٌّ وفسادٌ معنويٌّ، وبيانُ ذلك من وجهين:

اجتماعُ الكِبَرِ المادّيِّ والمعنويِّ في الفَسادِ

أوّلًا: أنّ المسلمين لو اختلطوا بالكفّار في زمانِ ضعفِ المسلمين وقلّةِ عددهم وزمانِ قوّة الكفّار وكثرةِ عددهم؛ فربما صارَت تلك المخالطةُ سببًا لالتحاق المسلم بالكُفّار.

ثانيًا: أنّ المسلمين لو كانوا متفرِّقين لم يظهرْ منهم جمعٌ عظيمٌ ؛ فيصير ذلك سببًا لجرأة الكفّار عليهم، وهذا فسادٌ كبيرٌ[1].

بَراعَةُ الاستِعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ:

إبـــرازُ الـفَـسـادِ في صـــــورَةِ المَـحـسـوسـاتِ مُبالَغَةٌ في بَيانِ شَناعَتِهِ

وَصْفُ الكِبَرِ في الأصلِ يُطلَقُ حقيقةً على عِظَمِ الأجسام، ووصفُ الفسادِ بالكِبَرِ في قولِ اللّه ﷻ: ﴿تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ مُستعارٌ للفسادِ الشَّديدِ القَويِّ[2]، على طريقةِ الاستعارَةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، والنُّكتَةُ في ذلكَ: إبرازُ الفسادِ، وهوَ معنويٌّ في صورةِ المحسوسِ مبالغَةً في تَشنيعِهِ.

سرُّ وَصْفِ الفسادِ بالكبير:

الـفـسـادُ الكبيرُ هو ما عَـمَّ وطَـمَّ حـتّـى أهـلـك الحرث والنّسل

آثرَ الوصفَ بالكبير دون العظيم؛ لوجود فرقٍ بينهما: فالعَظيمُ قد يكونُ مِن قِبَلِ الكَثرَةِ ومِن غيرِها[3]، فتقولُ: جاءَ خَلقٌ عظيمٌ، تُريدُ مِن جهَةِ كَثرَةِ عَدَدِهِم، وتقولُ: هذا ذنبٌ عظيمٌ، مِن جِهَةِ مِقدارِهِ لا مِن حيثُ كَثرَتُهُ؛ إذ هو ذنبٌ واحدٌ، أمّا الكَبيرُ فهو بحسَبِ الشَّأنِ والمِقدارِ فحَسبُ، ولا مَدخَلَ للقلَّةِ والكَثرَةِ فيه؛ لذلك كان التّعبيرُ في وصف الفسادِ بالكبير.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 8/195.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/88.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 183.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»